

التفسير المطول - سورة الرعد 009 - الدرس : 2 - سورة الرعد - تفسير الآيات 4 - 11 آيات الكون تنفع من كان له قلب حي



1986-07-25 📅

## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد، الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علما ما نافعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علما، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

### تذكير بما سبق:

أيها الإخوة المؤمنون، وصلنا في سورة الرعد إلى قوله تعالى:

﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون (4) ﴾

[سورة الرعد]

﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم تؤقنون (2) ﴾

[سورة الرعد]

قبلها:

﴿ المر تلك آيات الكتاب التي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون (1) ﴾

[سورة الرعد]

أي أن هذا الكتاب من ربك، من ربك؟

﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم تؤقنون \* وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل النمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون \* وفي الأرض ما جعل لكم في الأرض، ومن آياته الدالة على عظمته، أعرفت من عند من هذا الكتاب؟ من الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها، من الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي، ممن جعل في الأرض قطعاً متجاورات.

وفي الأرض قطع وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان

## الأراضي أنواع:

**(وفي الأرض قطع )** أي أراضي بعضها غضاري، بعضها كلسي، بعضها حَصِيب، بعضها مالح، بعضها مزروع، بعضها مُهْمَل، فحيثما سرت في الأرض ترى أنواعاً منوعاً من التُّراب، تراباً لَحْوِيَّة، تراباً غضاريَّة، تراباً كلسيَّة، تراباً بازليَّة، تراباً بركانيَّة، تراباً غنيَّة بالحديد، تراباً غنيَّة بالكالسيوم، تراباً تُسقى بعلاب، تراباً تُسقى بماء النهر، تراباً مزروعة، تراباً تتجح فيها هذه الفاكهة، تراباً ينجح فيها هذا المحصول.

## الأعاب والزرع والنخيل:

**(وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعقاب وزرع ونخيل)** النخيل باسقة، والأعاب متسلقة، والزرع أرضي، أي الخضراوات، المحاصيل هذه زروع، والأعاب متسلقة، والنخيل باسقة، أي أنها أنواع منوعة، أشجار دائمة الخضرة، أشجار مثمرة، أشجار قصيرة العمر، أشجار مديدة العمر.

**(وجنات من أعقاب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان)** لو ذهبت إلى حقل زيتون ألقت نظرك ظاهرة في الزيتون، أن كل شجرة من الزيتون ينبت في أطرافها فسائل، قد لا يقف الإنسان عند هذه الظاهرة، ولكن لو فكر فيها لعرف حكمة الله - سبحانه وتعالى -، لأنك لو زرعت بذرة الزيتون لاحتجت إلى سنواتٍ طويلةٍ كي تُصبح هذه البذرة فسيلة، ولكن الله - سبحانه وتعالى - توفيراً للوقت أخرج مع كل زيتونة ضخمَةً عدَّة فسائل حولها، ما عليك إلا أن تقطع هذه الفسيلة من جذر الزيتون، وتزرعها فإذا هي شجرةٌ بعد سنواتٍ عدَّة.

## معنى: صنوان:

قد تجد نخلتين من أصل واحد، وقد تجد للأصل الواحد نخلة واحدة. **(صنوان)** أي أخوان، **(وغير صنوان)** ومعنى كلمة "الصنؤ" أي الأخ..

## ونفضل بعضها على بعض في الأكل

**(صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل)** فهذه الآية من أعظم الآيات الدالة على عظمة الله - عز وجل -، لو اتفق أن في بستانٍ واحد شجرة كرز، وأخرى مشمش، والثانية تفاح، والثالثة دراق، والرابعة خوخ، وما شاكل ذلك، التربة واحدة، الجو واحد، الهواء واحد، السماد واحد، السقي واحد، الأمطار واحدة، الثلج واحد، البرد واحد، الحر واحد، طعم الدراق غير طعم الكرز، غير طعم العنب، غير طعم المشمش، غير طعم التفاح، غير طعم الأجاص.

**(ونفضل بعضها على بعض في الأكل)** لو قيل لك: صف طعم التفاح لا تستطيع، تقول: التفاح تفاح، صف طعم الأجاص، لن تستطيع.

**(ونفضل بعضها على بعض في الأكل)** أنواع منوعة **(ونفضل بعضها على بعض في الأكل)** هنا أي الطعم، نفضل بعضها على بعض في الطعم، طعم هذا غير طعم هذا، وسعر الفاكهة دليل اختلاف طوعومها، هناك فواكه رخيصة، هناك فواكه غالية **(ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)**.

## آيات الكون تنفع من كان له قلب حي:

قبل قليل: **(إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)** في هذه الآية: **(إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)** قال تعالى:

**(ألم يبيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنيها لا تعنى الأنصار ولكن تعنى القلوب التي في الصدور (46))**

[سورة الحج]

فالعقل مكانه القلب، والتفكير مكانه الرأس، فالإنسان يتفكر في الآية يقع بها، فإذا تعمق في فهمها عقلها، فإذا عقلها انتقلت من فكره إلى قلبه.

**(وإن تعجب فاعجب قولهم إذا كُنتا تراباً أننا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (5))**

[سورة الرعد]

فمعظم الناس يتوهمون أن الموت نهاية الحياة، مع أن الحقيقة أن الموت بداية الحياة، الله - سبحانه وتعالى - يقول:

**(وجاء ربك والملك صفًا صفًا (22) وحيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى (23) يقول يا ليتني قدمت لحياتي (24))**

[سورة الفجر]

## ليست الحياة كل شيء:

حينما يظنُّ الإنسان أن الحياة هي كل شيء، وأن السعيد فيها من كان غنياً، وأن الشقي فيها من كان فقيراً، وأن الموت نهايتها، هذه النظرة التي ينظر الناس من خلالها إلى الدنيا هي نظرة مُمِلِّكة، لأنك نقلت كل اهتماماتك إلى الأرض، إلى الدنيا، والدنيا قد تأتي أو قد لا تأتي، قد تُقبَل عليك فيختلُّ توازنك، وقد تُدبر عنك فتبأس، لكنك إذا نقلت اهتمامك إلى الدار الآخرة عندئذ يرضيك فيها كل شيء.

فما من واحدٍ مثلاً إلا وله فلسفة شاء أم أبى، كانت هذه الفلسفة عن وعي أو عن غير وعي، فالذي يظنُّ أن الدنيا كل شيء يُقبَل عليها بنهم شديد، ينام ويحلم بمباهجها، ببيوتها، بنسائها، بمالها، والذي يظنُّ الآخرة كل شيء هو العاقل.

مثلاً: لو أن إنساناً كان على وشك الموت عطشاً، وبقي له كي يموت عطشاً ساعة، وقيل له: هناك سبعة أمكنة يُظنُّ أن فيها ماء، وتحتاج إلى ساعة لتصل إلى كل منها، والماء في واحد منها، فأى خطأ في التوجُّه معناه الموت المُحقَّق، يوشك هذا الإنسان أن يموت عطشاً، والأطباء قدَّروا له ساعة، بعد هذه الساعة يلفظُ أنفاسه الأخيرة، هو في صحراء قيل له: في هذا المكان نبع، أو في هذا المكان، أو في هذا المكان، أعطوه سبعة أمكنة ثم قالوا له: حقيقة الماء في مكان واحد من هذه السبعة، فهل ينطلق الإنسان إلى أحد هذه الأمكنة قبل التروِّي وقبل البحث؟ لأن انطلاقه إلى أحد هذه الأمكنة قبل التأكد من أن الماء فيها معناه موتٌ مُحققٌ.

فشيء خطير جداً يُقال عنه: مصيري، أي مصيرك إلى الأبد، سعادتك إلى الأبد، شقاؤك إلى الأبد منوطٌ بهذا الكتاب، هذا منهجك في الحياة، فربنا -عزَّ وجل- جعل الدنيا دار تكليف وجعل الآخرة دار تشريف، أي أنَّ العطاء في الآخرة، والنعيم المقيم في الآخرة، والجنة التي عرضها السموات والأرض في الآخرة، لكن الدنيا دار عمل، دار جد، دار كسب..

" شَمِّرُوا فَإِنَّ الْأَمْرَ جَدٌّ، وَتَاهَبُوا فَإِنَّ السَّفَرَ قَرِيبٌ، وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ السَّفَرَ بَعِيدٌ، وَخَفَّفُوا أَثْقَالَكُمْ فَإِنَّ فِي الطَّرِيقِ عَقَبَةً كَثُورَةً، وَأَخْلَصُوا نِيَّةً، فَإِنَّ النَّاقِدَ بَصِيرٌ " .

## وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَيْنَا نَبَأًا أَنبَأْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ

### إنكار البعث فلسفة الجهلة والسفهاء:

﴿وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَيْنَا نَبَأًا أَنبَأْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ لو فكروا في خلق السموات والأرض لما قالوا هذا الكلام، لو رأوا صنعة الله -عزَّ وجل- فعرِّفوا من خلالها عظمة الخالق لما شكوا في أن الله -سبحانه وتعالى- سيحقِّق وعده ويبعث من في القبور، لو فكروا في ملكوت السموات والأرض، لو فكروا في خلقهم، لو فكروا في طعامهم، في شرابهم، لو فكروا في مظاهر الطبيعة التي أمامهم لما قالوا:

﴿أَيْنَا نَبَأًا أَنبَأْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هذا القول يقوله الجاهل، أنت أمام معمل ضخمة لصناعة أعظم الآلات تقول له: هل تستطيع أن تصنع آله صغيرة؟ لو وقفت أمام صناعته الدقيقة والكبيرة والجبَّار لما سألت هذا السؤال، دليل أنك لا تعرفه إطلاقاً، لأنك طرحت هذا السؤال فإنك لا تعرفه. إنه لقول عجيب:

﴿وَإِنْ تَعْجَبْ﴾ الله -سبحانه وتعالى- لم يقل: سيعجب ربكم، لأن الله لا يعجب، الله فوق أن يعجب، لأنه ليس كمثل شيء، أما هناك عَجَبٌ من قولهم، هذا العجب من عدم فهمهم لعظمة الله عزَّ وجل.

﴿وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ﴾ فقولهم يدعو عندكم إلى العجب يا بني البشر ﴿وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَيْنَا نَبَأًا أَنبَأْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

### الخلق الأول دليل عظمته، والخلق الثاني دليل عدالته:

الحقيقة أن الخلق الأول دليل عظمته، والخلق الثاني دليل عدالته، لأن في الخلق الأول عظمة ما بعدها عظمة، هناك الفقير والغني، هناك القوي والضعيف، هناك الظالم والمظلوم، هناك الصحيح والمريض، فهذا المريض لو أن هذه الدنيا هي كل شيء أليس له على الله عتبٌ شديد؟ يارب أنت الذي خلقتني، هذا الفقير الذي لا يجد قوت يومه وكانت الدنيا هي كل شيء وانتهى الأمر، أليس له عند الله عتبٌ شديد؟ في الدنيا فقير، في الدنيا غني، في الدنيا ضعيف، في الدنيا قوي، في الدنيا ظالم، في الدنيا مظلوم، في الدنيا صحيح، في الدنيا مريض.

الخلق الأول لحكمة بالغة، والخلق الثاني لتحقيق العدالة المطلقة.

### الحساب على الجميع:

فالغني سيحاسب على غناه، والفقير سيُسأل عن صبره، والقوي سيحاسب عن قوته كيف استخدمها، أتعتف بها، والضعيف سيُسأل عن توحده، والمريض سيُسأل عن صبره، والصحيح سيُسأل عن قوته كيف استعملها.

(( لَا تَزُولُ قَدَمَا عِنْدَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ جَسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ؟ ))

[سنن الترمذي عن أبي هريرة الأسلمي]

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93) ﴾

[سورة الحجر]

﴿أَفحسبُكُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَتَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115)﴾

[سورة المؤمنون]

جامعة، قاعات محاضرات، مكتبة ضخمة، حدائق، جهاز تدريسي من أرقى مستوى، مخابر كُلفت ألوف الملايين، ليس هناك امتحان؟ هكذا ادخل إلى الجامعة، واخرج منها من دون امتحان؟ من دون مسؤوليَّة؟ مستحيل، لا يفعلها إنسان.

﴿أَفحسبُكُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَتَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116)﴾

[سورة المؤمنون]

تعالى أن يخلق الناس عبثاً..

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16)﴾

[سورة الأنبياء]

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27)﴾

[سورة قصص]

﴿أَيحسبُ الإنسانُ أن يُتركَ سُدًى (36)﴾

[سورة القيامة]

نحن في الدنيا في ظل الأنظمة الوضعيَّة، يضرب إنسان إنساناً، أيقنله ويذهب إلى بيته هكذا؟ ليس هناك شرطة، ليس هناك دوائر مباحث جنائيَّة؟ هكذا ﴿أَيحسبُ الإنسانُ أن يُتركَ سُدًى﴾ عند مخلوق لا تنجو، عند مخلوق محدود العلم لا تنجو، عند الخالق؟! تاكل مال فلان، تنتهك عرض فلان، تُخادع فلاناً، تغشُ فلاناً، تحتكر هذه السلعة، تؤذي المسلمين، تأخذ أموالهم بغير حق وتُتركَ سدى؟ هكذا ببساطة، بلا حساب، بلا مسؤوليَّة، بلا عذاب؟ ليست العبرة أن ينجح جميع الطلاب في الجامعة، ولكن الشيء الرائع أن تتطابق النتائج مع المقيمات، هذا هو الشيء الرائع أن يكون هناك حسابٌ دقيق ﴿فَوَرَّكَ لَتَسَّالْتَهُمُ أَجْمَعِينَ \* عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَنْ رُبُّكَ بَعَّالٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (132)﴾

[سورة الأنعام]

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32)﴾

[سورة النحل]

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)﴾

[سورة الزلزلة]

إيمانك الصحيح أنك لو أنقذت نملة، أنك لو ابتسمت ابتسامة بمقدار ثانية واحدة سخرية من إنسان لحويبت عليها، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (( حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةٍ كَذَا وَكَذَا، تَغْيِي قَصِيرَةً، فَقَالَ: لَقَدْ قُلْتَ كَلِمَةً لَوْ مَزَجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ ))

[الترمذي]

كلمة قصيرة، فلان ما قلت شيئاً، فلانة ما قلت شيئاً، إنك تُحاسب على ذلك، أمتأكد أنت أنها منحرفة؟ أ عندك دليل؟ أ جاءك أربعة شهود، أم أنها قصَّة سمعتها فنقلتها؟ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

(( كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ ))

[مسلم، ابوداود]

لابد من تمحيص.

## حساب الدنيا قبل حساب الآخرة:

﴿وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ والله الحساب في الدنيا قبل الآخرة، لو تتبععت أهل الدنيا وانحرفاتهم، ورأيت كيف أن الله - سبحانه وتعالى - يجازيهم عن أعمالهم في الدنيا قبل الآخرة لعجبت العجب العجائب، أبدأ.

﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْشِرَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97)﴾

[سورة النحل]

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ دُعَايِ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا ۖ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (126) ﴾

[سورة طه]

يعني كنت أعمى في الدنيا ﴿أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ .  
﴿وَأِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَيُّدَا كُنَّا تَرَابًا إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾

### الإيمان بالله واليوم الآخر متلازمان:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ لأنهم كفروا برَبِّهم أنكروا البعث، وكان الإيمان بالله وباليوم الآخر متلازمان، إذا أمنت بالله تقتضي عدالته أن هناك يوماً آخر، إن لم تؤمن بالله تُنكِرُ يوم البعث، لذلك من أركان الإيمان الإيمان بالله واليوم الآخر، أبدأ، الإيمان باليوم الآخر من مستلزمات الإيمان بالله -عز وجل-، كما أن الإيمان بالفحص من مستلزمات الجامعة، لا جامعة بلا امتحان، لأن هناك إلقاء محاضرات، وهناك تفاوت بين الطلاب في فهم هذه المحاضرات، تفاوت في الدوام، تفاوت في الفهم، تفاوت في البذل، تفاوت في الجهد، تفاوت في الدراسة، ما الذي يميّز هذا التفاوت؟ الامتحان، فالامتحان شيء لازم للجامعة، كذلك اليوم الآخر لا بد منه في نهاية الحياة.  
﴿وَأُولَئِكَ﴾ أي أن هؤلاء الذين يقولون: ﴿أَيُّدَا كُنَّا تَرَابًا إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ .

### لو عرفوا ربهم من خلال خلقه لما كفروا به:

لو أنهم عرفوا ربهم كيف أمدهم بالهواء، هذا الهواء نستنشقه نأخذ منه الأكسجين، ونطرح غاز الفحم، يأتي النبات فيأخذ غاز الفحم يُنتِج الفحم في الأوراق وي طرح الأكسجين، ومن أخذ الأكسجين وطرح غاز الفحم، وأخذ غاز الفحم وطرح الأكسجين ينشأ هذا التوازن في الأرض، وإلا لانتهى الأكسجين، لو فكروا في ربهم كيف خلق لهم الهواء بهذه النسب الدقيقة، وكيف جعلهم يتكاملون مع النبات.  
لو فكروا في الماء كيف صفاه الله -عز وجل- وحلّاه، هو في البحر ملحٌ أجاج، وفي الينابيع ماءٌ عذبٌ فترات، لو فكروا في تخزين المياه..

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحِجٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَائِرِينَ (22) ﴾

[سورة الحجر]

لو فكروا في ظاهرة النبات، النبات أكبر ظاهرة في الأرض، أن تزرع حبة فتصبح شجرة، لكن أين البرمجة؟ قال لي واحد بذرة مبرمجة، قلت له: جميل، تعال أنا نقشك بهذا الموضوع، لو أردت إنشاء بناء ضخم، وذهبت إلى أعظم المهندسين، ووضعوا لك مخططات تفصيلية، مخطط للأساسات، مخطط للطابق الأول، للطابق الثاني، الثالث، الرابع، الخامس، هندسة ينسب ومقاييس، وهندسة شكل ومظهر، وهندسة كهرباء، وهندسة مياه،... إلخ. وجمعت هذه الخرائط، وهكذا سُمِّكها ضعها على أرض البناء، وانتظر كم سنة حتى يظهر البناء، نحن في عالم الواقع، هل تكفي الخرائط المُبرمجة التي فيها حساب دقيق لهذا البناء، هل تكفي هذه الخرائط ليظهر البناء؟ تقول: لا إنه لا يظهر، نحتاج إلى ماذا؟ إلى مواد أولية، أنت بهذه المواد الأولية؛ أنت بهذه الخرائط المبرمجة التي فيها حساب دقيق لهذا البناء، هل يظهر البناء؟ تقول: يد عاملة، إذا كان بناء فيحتاج إلى خارطة، ومواد أولية، ويد عاملة، فهل تكفي بذرة مبرمجة أن تنبت شجرة؟  
بذرة التين كراس الدبوس، هذه البذرة فيها رُشيم، وفيها مواد مغذية للرُشيم، والرُشيم حي، كيف تصبح هذه البذرة شجرة؟ حبة قمح زُرعت فأنبتت ثلاث آلاف حبة رأيتها بأيم عيني، خمس وثلاثون سنبله من حبة قمح واحدة، وكل سنبله فيها ستون أو سبعون حبة، بذرة واحدة، حبة قمح واحدة أصبحت ثلاث آلاف حبة، فيد من؟ المزارع يلقي الحبة في الأرض، ويذهب إلى البيت، من أودع في هذه الحبة هذه الحياة؟ من جعل الرُشيم حينما جاءت الرطوبة بنبت له سُويقٌ دقيقٌ وجُدبٌ دقيقٌ، من جعل الجذر يتجه نحو الأسفل والسويق يتجه نحو الأعلى؟ ما هذا التوافق الدقيق بين انتهاء المواد الغذائية في البذرة وإمكانية الجُدب أن يأخذ من التراب ما يحتاج؟ ما هذا التوافق العجيب؟ فالنبات ظاهرة. فالهواء آية، والماء آية، والنبات آية، والحيوان آية، وهذه المخلوقات؛ الطيور، الأسماك، الأنعام، الإبل، الغنم، الماعز، البقر. هذه البقرة لو أن حليبها خلقه الله لو ليدها فقط فان وليدها يكفيه اثنان كيلو في النهار كله، البقرة تعطي ثلاثين كيلو حليباً، معنى هذا أن الحليب لنا خصيصي، خُلق لنا..

﴿وَأِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَسُقِيَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (66) ﴾

[سورة النحل]

أنت تأكل جبنه صباحاً ولبناً مصفى، قشطة، هذا كله من الحليب، سمته بلدي، من صنعه؟ من صنعه؟ يد من صنعهته؟  
﴿أُولَئِكَ﴾ أي أن هؤلاء الذين يقولون: ﴿أَيُّدَا كُنَّا تَرَابًا إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هذا الذي يقول هذا ما فكّر في ربّه، لو فكّر في رب العالمين، وكيف خلقه وأمهدها لَمَّا أنكر البعث والنشور.  
﴿وَأِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَيُّدَا كُنَّا تَرَابًا إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾

### وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ

المعنى الأول: المجرم لا بد من تقييده بالأغلال:

(وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْقَابِهِمْ) بعضهم وجّه هذه الآية إلى يوم القيامة:

{ خُدُوهُ فَعَلُوهُ (30) }

[سورة الحاقة]

المجرم يُقَيَّد.

{ ثُمَّ الْحَجِيمِ صَلْوُهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (32) }

[سورة الحاقة]

هذا المعنى الأوّل.

المعنى الثاني: الكافر مقيد بالشهوات:

المعنى الثاني: { وَأُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْقَابِهِمْ } هذا الكافر مقيد بالشهوات، شهوته تذله وتسحقه، هو عبد لها.

(( تَعِسَ عَبْدُ الذَّنْبَانِ وَعَبْدُ الذَّرِّ هَمَّ وَعَبْدُ الْحَمِيصَةِ، تَعِسَ وَأَنْتَكَسَ ))

[البخاري عن أبي هريرة]

هؤلاء عبيد الشهوات، هناك رجل بعد أن هداه الله - سبحانه وتعالى - يقول: " كنت عبداً فأصبحت حرّاً، وكنت عبداً فأصبحت عبداً "، قيل له: فيبتر هذا الكلام، قال: " كنت عبداً لشهوتي فأصبحت متحرراً منها، ثم كنت حرّاً بمعنى أنني غير منضبط، فأصبحت عبداً لربّي، ولي منهج أسير عليه "، " كنت عبداً فأصبحت حرّاً، وكنت حرّاً فأصبحت عبداً " .

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْقَابِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (5) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (6) }

[سورة الرء]

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ

استهزاء الكفار بو عيد الله:

{ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ } يستهزون بو عيد الله سبحانه وتعالى، ليعذبنا ربك، أين العذاب؟ ليات { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ } فإذا جاء العذاب رأيتهم يصرخون كالكلاب، لكنهم لجبهلم، الحيوان من صفاته أنه يخاف بعينه فقط، أي لا يخاف حتى يرى الخطر بعينه يخاف.

الإنسان العاقل يخاف بفكره لا بعينه:

أما الإنسان فكّر مه الله - عزّ وجل -، يجب أن يخاف بفكره، يجب أن يرى الخطر المتوقّع قبل أن يقع الخطر، فالذي يخاف بعينه هذا متخلف، هذا ينتمي إلى صنف الحيوان، لا يخاف إلا إذا رأى الخطر، ما دام في صحّة جيّدة، ما دام في مال وفير هو مع شهواته يستعلي على الناس في الأرض، يأكل حقهم، يغتصب أموالهم، ينتهك حرّماتهم، يعتدي على أعراضهم ما دام فيه قوّة، فإذا وقع في مرضٍ قلبيّ غُضال صار يعوي كالكلاب، يقول: أنقذوني، أين كنت؟ يقولون: إن ملك الموت حينما يوضع الميت ويُسَلُّ يقول: " يا ابن آدم، أين سمعك؟ ما أصمك! أين ريحك؟ ما أفسدك! أين قوّتك؟ ما أضعفك! ". الموت فيه مو عظة بالغة، لو أنك رأيت إنساناً مُمدداً على خشبيّة المُغْتَسَل، جثّة هامدة، قبل قليل كان ملء السمع والبصر، أصبح حديثاً، أصبح نعوة على جدران الطرقات بعد أن كان ملء السمع والبصر.

{ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ } الإنسان تحت أطاف الله - عزّ وجل -، من يدرى ماذا في بطنه، هؤلاء الذين اكتشفت في بطونهم مرض خبيث هل كانوا يعلمون ذلك من قبل؟ لو أنه انفجر في الدماغ لقضى على الإنسان في أربع ثوانٍ، شريان واحد لو انفجر في الدماغ، هذا القلب لو تعطلّ بعض دسّاماته، هذه الشرايين لو تصلّبت، هذا الضغط لو ارتفع، هاتان الكليتان لو تعطلتا، هاتان الرئتان لو أصيبتا بذات الجنب، هذا الكبد لو تشمّع، هذه الحركة لو شلت، هذا البصر لو ذهب، هذا السمع لو ذهب، هذا العقل لو اختل لأخذه على الفصير، أقرب الناس إليك يخافون منك، نعمة العقل، نعمة الصّحة.

وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ

## الدهر عبر وأمثال:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ﴾ أي العبر، كيف أن الله أهلك القرون من قبلهم؟ هذه القصص تحت سمعهم وأبصارهم. كولومبيا دولة في أمريكا، فيها مدينة في سفح جبل، الجبل مغطى بالثلوج، الجبل أخضر، المسارح، الفنادق، الشوارع، الحدائق، الحياة بأوجها، انفجر البركان، وذاب الثلج، وقُذفت هذه المدينة بالحمم البركانيّة، خمسة وثلاثون ألفاً قُتلوا فوراً، أين الإنسان؟ أحياناً طائرة تحترق في السماء، وبسبب خلل بسيط وقد مات جميع ركابها، ثلاثمائة وخمسون راكباً، خلل بسيط في أجهزتها، نحن تحت رحمة الله ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ﴾.

## وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ

آية غاية في الرجاء:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قال بعض المفسرين: " هذه أرجى آية في كتاب الله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ ليس القصد أن يحاسبهم، بل القصد أن يرحمهم، لذلك يمهّلهم، لو أن القصد أن يحاسبهم لحاسبهم وقضى عليهم، وأهلكهم، وانتهى الأمر، ولكن إمهالهم وحلمه عليهم من أجل أن يرحمهم، لذلك إذا كان الإنسان في بحيرة وهو يعصي الله فليترقب العقاب، إذا كان الله يكرمك وأنت تعصيه فاحذره، لأن الكيل قد طفت، تجاوزت الحد.

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدّمت مسؤول

تعصي الإله وأنت تُظهِر حَيْهَ ذاك لعمرى في المقال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب بطبع

[الإمام الشافعي]

\*\*\*\*\*

أيا خجلتي منه إذا هو قال لي أيا عيبتنا ما قرأت كتابنا؟

أما تستحي منّا ويكفيك ماجرى أما تختشي من عتبنا يوم جمعنا

أما أن أن تغلغ عن الذنب راجعاً وتنظر ما به جاء وعدنا

[علي بن محمد بن وفا]

إلى متى أنت؟

عندي لك الصلح وهو بري وعندك السيف والسنان

ترضى بأن تنقضى الليالي وما انقضت حربك العوان

تستحي من شبيبة تراها في النار مسجونة تهاون

\*\*\*

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾.

## المغفرة مقيدة بالتوبة:

هناك علماء قَدِّروا هذه الآية فقالوا: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ إذا تابوا، وإذا عدوا، وإذا أنابوا، وإذا ألقوا، وإذا اندموا، وإذا اتصلوا، وإذا بذلوا. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إذا أصرّوا، أي لا تأخذها بفهم ساذج ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾.

(( وَمَنْ لَقِينِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ حَاطِبَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِينَهُ بِمِثْلِهَا مَغْفُورَةً ))

[مسلم عن أبي ذر]

بشرط أن تأتيه، أن تعود إلي، أن ترجع إلي، أن تُقبِل علي، أن تتوب من ذنبك.

لكن احذر وأكمل الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

أما إذا أصررت: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ويعاقبك من أجل أن يرحمك، من أجل أن تعود إليه قسراً بعد أن أبيت أن تعود إليه طوعاً.

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7) ﴾

[سورة التوبة]

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ

السفيه يسأل عن الآيات وهي تحت سمعه وبصره:

ياسبحان الله! الآيات في الأرض وفي السماوات لا تُعدُّ ولا تحصى..

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) ﴾

[سورة الذاريات]

أنت آية، خلقك آية، ابنك آية، زوجك آية، طعامك آية، شرايك آية، الطير في السماء آية، السمك في البحر آية، النهر آية، الجبل آية، الصحراء آية، العزُّ آية، السهْل آية، الشمس آية، القمر آية، الجراثيم آيات من آيات الله، الأمراض..

وفي كل شيء آية تدلُّ على أنه واحدٌ

\*\*\*

مدرّس مثلاً كتب نظريّة على السبورة، وبرهن عليها بثلاثين برهاناً، بعد أن انتهى من إلقاء المحاضرة رفع طالب أصبعه، وقال له: يا أستاذ، ما البرهان على صحّة هذه النظرية؟ أي برهان هذا؟

يروى أن الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه كان يدرّس طلابه في بعض المساجد، والدرس كان عن صلاة الفجر، وكان في رجليه مرضٌ، وكان يمدُّها بالإذن من تلاميذه، دخل شيخٌ مُعَمَّمٌ طويل القامة، عريض المنكبين، فاستحيا منه أبو حنيفة فرفع رجليه مكابراً، فجلس هذا الشيخ الوقور في مجلس هذا العالم الجليل، تحدّث عن صلاة الفجر، وعن الفجر الصادق والكاذب، وعن الصلاة في غُلسٍ أو في سحرٍ.. وإلخ، وبعد أن انتهى الدرس رفع إصبعه هذا العالم الشيخ المُعَمَّم الوقور، وقال له: ياسيدي، كيف نصلي الصبح إذا طلعت الشمس قبل الفجر؟ فقال أبو حنيفة: "عندئذ يمدُّ أبو حنيفة رجليه".

## الكون معجزة:

يعني كل هذه الآيات ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ الكون هو المعجزة، وليس خرق آيات الله في الأرض هو المعجزة، الكون هو المعجزة، فأنت أحياناً أمام آلة ضخمة جداً تُؤخِّدُ بها فتقول: ما أعظم الذي صنعها! أو تقول: إن كانت هذه الآلة عظيمة شغّلوا بلا طاقة، هذا كلام فارغ، مع أن هناك مأخذاً للطاقة فعظمتها فيها، فخرق القوانين ليس هو المعجزة، الكون بحذ ذاته في حالته الطبيعيّة، في حالته الراهنة هو المعجزة، في خلق الإنسان ليست المعجزة أن تمرض فتشفى المعجزة كيف لا تمرض، الإنسان عندما يقول: أنا اليوم صحّتي طيبة، معنى هذا أنه هناك آلاف الأجهزة تعمل بانتظام.

## فكر في جسمك لترى عظمة الله:

مرّة رأيت كتاباً في مكتبة فيه حوالي ألفا صفحة، عنوانه بسيط هو: (أمراض الدم)، معنى هذا بالتحليل عندك ثلاثة وعشرون بنداً؛ الشحوم الثلاثية، والكوليسترول، والبولية... إلخ، وكل مادة لها نسب معيّنة، حد أدنى، حد أقصى، حد مرضي، حد خطير، حد غير خطر، الدم فقط عالم قائم بذاته.

الأمراض العصبية، أمراض العضلات، أمراض جهاز الهضم، أمراض المعدة، أمراض الاثنا عشر، أمراض البنكرياس "السكر"، أمراض الكبد، أمراض الجهاز التنفسي، أمراض القلب، وعن القلب قرأت كتاباً شيء يحير العقول، دسّماته، والأدينين، والبطينين، والشريان الأبهري، والتوتر الشرياني، وأسباب التوتر الشرياني، إذا قلت: ما بي من مرض فأنت المعجزة، على قدر ما هنالك من أجهزة تعمل بانتظام وتنسيق.

إذا رأى أحد حيّة فما الذي يحصل؟ العين تنطبع عليها صورة الأفعى، هذه الصورة تنتقل إلى الدماغ، الدماغ يدرك أن هذه أفعى خطيرة، يعطي الدماغ خبراً للغدة النخامية عن طريق وسيط بين الدماغ والغدة النخامية، الغدة النخامية ملكة الجهاز الهرموني تعطي أمراً إلى الكظر بأن هناك خطراً فتصرّف، الكظر يصدر أمراً هرمونياً بتسريع ضربات القلب أول شيء، فإذا خاف إنسان يصير قلبه يدق مائة وأربعين دقّة من دون أن يشعر، الكظر يصدر أمراً هرمونياً بتضييق لمعة الشرايين، جميع الشرايين في الإنسان حولها أعصابٌ إذا تبيّنت ضيّقت لمعتها، فإذا ضيّقت لمعتها اصفرّ الإنسان، من أجل أن يُوقَّرَ الدم للعضلات، لأن لا تحتاج إلى خد وردّي، لأن يريد أن ينجو من هذه الأفعى، فلذلك أول أمر لتضييق لمعة الشرايين يصفر الخائف.

الأمر الثاني تسريع القلب، لأن النبض السريع يحرك الدم بسرعة في الشرايين، سيارة إسعاف، وتمشي بسرعة الخمسة والعشرين؟ هذا لا يجوز.. فالقلب ينبض بسرعة، والشرايين تضيق لمعتها، يصدر أمراً هرمونياً ثالثاً للرنيتين فيزداد خفقان الرنيتين كي تتوافق مع القلب من أجل التصفية، تصدر أمراً رابعاً بتحريك كمّيّة إضافية من السكر في

الدم، لو فحصت دم خانف تجد فيه سكر أ بنسبٍ مرتفعة، أنت ما عندك علم ففطر آيت أفعى، أو عقرباً، أو إنساناً معه سلاح، أو سيارة كادت أن تصطدم بك، تجد القلب دقّ مائة وأربعين دقّة، صارت حركة الرئتين سريرة، اصفرار، الدم فيه سكر، أنت آية، وأنت في حالتك الطبيعية آية ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ

### المعنى الأول:

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ أي أن وظيفتك يا محمّد تنتهي عند التبليغ، وفي بعض التفاسير: الله هو الهادي.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ فهذا يهتدي بمرضٍ عضال، هذا يهتدي بسجنٍ طويل، هذا يهتدي بالتعذيب، هذا يهتدي بالفقر، هذا يهتدي بالذل، هذا يهتدي بالإكرام، هذا يهتدي بالمهتدي، هذا يهتدي بالسّماع..

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ هذه بعض المعاني.

### المعنى الثاني:

المعنى الآخر: كل قوم لهم من يهديهم وفّق طريقهم، ووفق مقابيسهم في الحياة، ففي عصر العلم يحتاج الذي يتصدّى لهداية الناس إلى مزيد من العلم، يحتاج أن يستخدم سلاح العصر، وفي عصر السحر جاء موسى بالسحر، وفي عصر الطّب جاء سيدنا عيسى بالطب، وفي عصر البلاغة جاء النبي -عليه الصلاة والسلام- بهذا الكتاب المعجز.. ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ كل قوم لهم هادٍ يناسب قيمهم وطبا عهم ومقاييسهم في الحياة.

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ

انظر إلى موقع (ما) في هذه الآية لتفهم معناها:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8)﴾

[سورة الرعد]

لم يقل الله -عزّ وجل-: الله يعلم من تحمل، هناك مشكلة يقولون لك: إن العلماء قد توصلوا إلى معرفة جنس الجنين أذكر؟ هو أم أنثى؟ الله -سبحانه وتعالى- يقول: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ لم يقل: مَنْ ذكر أم أنثى، قال: ما، أي تحت هذا الحرف تنضوي معانٍ كثيرة، هذا المولود ذكرٌ أو أنثى، وسيّم أو دميم، ذكياً أو غيبى، مليحٌ أو قبيح، مُصلِحٌ أو مُفسِد، فهذه أسئلة كثيرة جداً، يشبه أباه أو لا يشبهه، قالوا: في العزى الملوّنة "الكر وموزونات" أو امر بتخليق الإنسان، هذه الأوامر لو كتبت على ورق لضاقت بها أكثر الكتب أو الموسوعات اتساعاً، هناك أمر دقيقة، تجد طفلاً شعره كثيفٌ في ظهره، هذا أمر، وجهه مستطيل، مربع، دائري، على شكل كمثرى، على شكل كرة، على شكل صندوق، شعره كثيف، خفيف، أسود، خرنوبي، كستنائي، أشقر، جعد، سبط، حاجباه، عيناه، حذّه، فمه، لسانه، نبرة صوته. فهناك دقائق دقيقة جداً لا يعلمها إلا الله، الله وحده يعلم ما تحمل كل أنثى، موضوع ذكر أو أنثى موضوع تافه جداً إذا قيس بما تعنيه هذه الآية: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ وعلى وجه اليقين لا أحد يعلم.

معنى: وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ الرحم إذا غاضت أي انقطع منها دم الحيض، أي صار هناك حمل، أو يزيد هذا الدم بعد الولادة.

﴿تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ كناية عن الحمل، أو تغيض الأرحام لا تحمل فتكون عقيمة، أو تزاد فتلد التوائم، كلاهما يصح في هذه الآية.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ (9)﴾

[سورة الرعد]

أي أن فلاناً جاء بأولاد ذكور، بأولاد إناث، فلان عقيم، فلان أنجب ولداً واحداً ثم توفي، أنجب ولداً ذكياً ولداً أقلّ ذكاءً، ولداً مُصلِحاً ولداً مُفسِداً.

عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ

لا يعلم الغيب إلا الله:

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ \* عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ لا يعلم الغيب إلا الله، عالم الغيب، ماسيكون، النبي - عليه الصلاة والسلام - قال الله عنه:

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّمَا أَنبِئُ بِمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (50)﴾

[سورة الأنعام]

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (188)﴾

[سورة الأعراف]

## الله هو الكبير المتعالي في العظمة:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ متعالٍ في عظمته، مهما تحدثت عن عظمته فهو أعظم، مهما عرفت من كماله فهو أكمل، مهما عرفت من قدرته فهو أقدر، مهما عرفت من رحمته فهو أرحم، مهما عرفت من لطفه فهو ألطف. ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ أي المتعالي، سبحانه وتعالى، تعالى عن أن يشبهه أحداً من خلقه، ليس كمثل شيء.

سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ

الله يعلم العلن والسر وأخفى:

﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (10)﴾

[سورة الرعد]

أي إذا كان هناك فكرة أبقيتها في ضميرك، أو نطقت بها، أخفيتها أو أعلنتها، أسرتها أو أظهرتها.

من هو المستخفي بالليل و السارِب بالنهار:

﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ أي يتوارى عن الأنظار. ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ يمشي في الطريق، هكذا من دون خوف، من دون وجل، أي أن هذا المستخفي في علم الله، وهذا الذي لا يستخفي في علم الله، هذا الذي يُبَيِّرُ أمر أفي علم الله، وهذا الذي يفصحه في علم الله. ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ﴾ أي أن عند علم الله سواء، أخفيت أم أسرت، أعلنت أم أظهرت، صرّحت أم أسررت، سواء بسواء.

لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ

﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعْزِرُ مَا يُعْزِرُونَ مَا بَأْسُنَهُمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾

(11)﴾

[سورة الرعد]

هذا الإنسان الذي أسرّ القول أو جهر به، أو الذي استخفي بالليل أو ظهر بالنهار.

كل إنسان معه ملائكة تتعقب أعماله:

﴿لَهُ﴾ أي أن الله - سبحانه وتعالى - قيّض له، قيّض لهذا الإنسان ملائكة تتعقب أعماله ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أينما ذهب، وأينما جلس، وأينما سافر، وأينما حلّ، وأينما رحل، من عن يمينه، من عن شماله.

يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ

معنى الحفظ من أمر الله:

﴿مَنْ بَيَّنَّ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ﴾ هذه لها معنيان، إما أنهم يحفظون عمله، أو أنهم يحفظونه من الحفظ- هذا أجله لم ينته، يُحْفَظُ من أي حادث، يقول لك: كنت ساموت، لا تموت، يحفظونه إما أنه حفظ العناية، أو حفظ الرقابة ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ هؤلاء الملائكة من أمر الله يحفظونه.

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ نحن جميعاً نُحِبُّ أشياء ونكره أشياء، فإذا أطعنا الله - عز وجل - أعطانا ما نحب، وصرنا عتاً ما نكره، وإذا عصينا الله - عز وجل - زوى عتاً ما نحب، وساق إلينا ما نكره لذلك:

(( يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَجْرَكُمْ، وَإِنْ سَأَلْتُمْ وَجَدْتُمْ قَائِمًا فِي صَعِيدٍ وَاجِدْ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يُنْقَضُ الْمِخْبَاطُ إِذَا أُدْجِلَ الْبَحْرُ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصَيْتُمُوهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْقَيْتُمْ بِهَا إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيُخَمِدْهُ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ ))

[صحيح مسلم: عن النبي]

فإذا أطعنا الله - عز وجل - ساق لنا ما نحب، وصرنا عتاً ما نكره، وإذا عصينا ساق إلينا ما نكره، -وما أكثر ما نكره-، وصرنا عتاً ما نحب، وكما جاء في الحديث القدسي:

(( أنا ملك الملوك، ومالك الملوك، وقلوب الملوك بيدي، فإن العباد أطاعوني حوّلت قلوب ملوكهم عليهم بالرفقة والرحمة، وإن العباد عصوني حوّلت قلوب ملوكهم عليهم بالسخطة والنقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك، وادعوا لهم بالصلاح فإن صلاحهم بصلاحكم. ))

[رواه الطبراني في الأوسط وهو ضعيف جداً]

هذه الآية تحل آلاف المشكلات: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112)﴾

[سورة النحل]

غَيِّرْ مَا بِكَ حَتَّى يَغْيِرَ اللَّهُ:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الله لا يغيّر حتى تغيّر؛ إذا كنت في بحوحة، وفي سعادة، وفي وفاق زوجي، في عمل مريح دخله كبير، ولم تُغَيِّرْ، بقيت مستقيماً على أمره، شاكرًا لهذه النعم، مجاهدًا لنفسك و هواك، الله لا يغيّر، من حسن إلى أحسن، وإن كان الإنسان في ضائقة، في مشكلة، في أزمة، فالله - سبحانه وتعالى - لا يزيح عنه هذه الأزمة حتى يغيّر، حتى يتوب.

الآية لها معنيان متعاكسان: إن الله لا يغيّر حتى تغيّر، لا يغيّر من حسن إلى أسوأ حتى تغيّر من طاعة إلى معصية، ولا يغيّر من سيئ إلى حسن حتى تغيّر من معصية إلى طاعة، لا يغيّر حتى تغيّر، أنت الأصل، غير ليغيّر، لا تغيّر لا يغيّر:

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19)﴾

[سورة الأنفال]

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5)﴾

[سورة الصف]

القضية واضحة كالشمس ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ إذا ما غيّرنا ما بأنفسهم.

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ

لا أحد يضر إلا بإذن الله:

﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ لو أن أهل الأرض اجتمعت على أن ينعوا عنك شيئاً قدره الله عليك لا يستطيعون.

فرعون رأى في المنام أن طفلاً من بني إسرائيل يقضي على ملكه، فأمر بقتل أطفال بني إسرائيل كيهم، أما الذي يقضي على ملكه ربّه في قصره.

﴿فَأَنْتَقَطَةُ آلَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرَمًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِبِينَ (8)﴾

**﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾** لأنفه الأسباب تدفع أبهظ الأثمان، لأنفه الأسباب، بعلطة، أحياناً ترى إنساناً أسها فصار في حالة يرثى لها في الطريق، غفل فنام، سيارته، أو لاده، زوجته، هذه ميتة، وهذه فيها كسر، وهذه في المستشفيات، سهوة خفيفة، لأنفه سبب تدفع أبهظ ثمن.

### يوثى الحذر من مأمته:

**﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾** إن الله تعالى إذا أحب إنفاذ أمر سلب كل ذي لب ليه، " **يوثى الحذر من مأمته**" يجعل الله تدميره في تدبيره، يفكر فيفكر فيفكر، ويدبر ويدبر ويدبر، فيكون هلاكه في هذا التدبير.

أغنى أغنياء العالم روتشلد اليهودي عنده مستودع ضخم للذهب -سبانك الذهب- كانت الحكومة البريطانية تقترض منه أحياناً، دخل إلى المستودع فأغلق باب المستودع وراءه، صاح ولم يسمعه أحد، أمضى أياماً ثلاثة في داخله، أوشك على الموت، فجرح أصبعه وكتب على الجدار: " أغنى رجل في العالم يموت جوعاً "، مات جوعاً.

**﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾** نسمع خبراً أن هذه الطائرة احترقت ومات كل ركابها، باب الطائرة لم يكن مغلقاً إغلاقاً مُحكماً، أو الجهاز الفلاني تعطل.  
**﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾** أحياناً مزرعة تكون تكلفتها خمسمائة ألف.

**﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19)﴾**

خلال دقائق بصيبيها صقيع فتحترق كل الثمار..

**﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْتَابٌ تُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضَعُفَاءٌ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۗ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (266)﴾**

فالإنسان **﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾** هذه الآيات تكفي.

**﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾**

والحمد لله رب العالمين.